المسألة المصرية: 1820 – 1840م

The Egyptian Question: 1820-1840

وهيبة قطوش*
جامعة الجزائر2
guetouche-wahiba@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 2023/02/19 تاريخ القبول 2023/04/14 تاريخ النشر 2023/05/14

ملخص:

مثّلت المسألة المصرية مرحلة حرجة في حياة الدولة العثمانية التي تزايد التكالب الأوربي عليها، إضافة إلى الأزمات الخارجية الأخرى. فاستقلال محمد علي بحكم مصر كان ضربة موجعة لها في وقت جاهد السلطان محمود الثاني لإعادة بعث القوة العثمانية بعد الخمول الذي عرفته آنذاك. إلا أن حركة محمد علي الانفصالية فاجأت الجميع وأخلطت حسابات الدول الأوربية ولو إلى حين.

الكلمات المفتاحية: مصر، محمد علي، العثمانيون، أوربا، التوسع، المعاهدة، الحرب.

Abstract:

The Egyptian question represented a critical stage in the life of the Ottoman Empire, which increased European competition, in addition to other external crises.
Muhammad Ali's independence in Egypt was a blow to the Ottomans as Sultan Mahmoud II strove to resurrect Ottoman power. Muhammad Ali's separatist movement took everyone by surprise and mixed up their plans and accounts

key words: Egypt, Mohammed Ali, the Ottomans, Europe, expansion, treaty, war.

* المؤلف المرسل

مقدّمة:

عرفت الدولة العثمانية على امتداد وجودها تحديات كثيرة منها ما تمكنت من السيطرة عليه، ومنها ما عجزت عن ذلك نتيجة الظروف التي زامنت تلك الأحداث، خاصة ما تعلق بالتدخلات الأوربية والصراع القائم بينها آنذاك، الذي شكّل فيما بعد ما عرف تاريخيا بالمسالة الشرقية التي كانت مسرحا واسعا للتكالب الأوربي الشرس على الدولة العثمانية.

وقد كانت مصر الضحية الأولى في المشرق العربي للصراع الأوربي: الفرنسي –البريطاني بشكل خاص، من خلال الحملة الفرنسية التي شنها عليها نابليون بونابرت سنة 1798م. بعدما اتخذت الدول الأوربية عدة ذرائع لأجل شرعنة أطماعها في مصر. فهذا وزير الخارجية الفرنسي في عهد حكومة الثورة يقول: "إن مصر لا قيمة فعلية لها عند الباب العالي لأن ليس للسلطان فيها إلاّ ظل ضئيل من السلطة والنفوذ، فاحتلالها لا يمكن أن يفسر أنه الضربة الأولى المسددة لقواعد الإمبراطورية العثمانية..."[1].

ومثّل الموقع الاستراتيجي لمصر الرابط بين الشرق والغرب، أحد أهم الأهداف التي سعت فرنسا إلى تحقيقها من خلال الحملة، لأن ذلك سيمكنّها من الانفراد بالمزايا المترتبة عنها. خاصة إحكام قبضتها على الطريق التجاري بين الهند والبحر المتوسط، وبالتالي رضوخ مختلف الدول الأوربية وعلى رأسها –الغريمة–إنجلترا لمنطق السياسة الفرنسية هناك. ففرنسا "أرادت بأية طريقة بلوغ القوة البريطانية في مقرها الجد حساس، الأدقّ والأضعف، تهديد الهند." [2]، كما أدركت انجلترا أن نفوذ فرنسا في المنطقة وسيطرتها على الطرق التجارية، سيهدد حتما مصالحها التجارية هناك. وهذا ما صرّح به تاليران قائلا: " إن احتلالنا لمصر سيحدث في ميادين التجارة الأوربية ثورة لا مفر لبريطانيا من تحمل نتائجها. وستقضي هذه الثورة على مناعتها في الهند، والهند أقوى دعائم عظمتها في أوروبا... "[3].

أولا– مفهوم المسألة المصرية:

تبلور مفهوم المسألة المصرية في مجموعة من التغيرات التي بدأت مع بروز شخصية محمد علي باشا خاصة بعد سلسلة الانتصارات والإنجازات التي حققها في مصر ليزداد طموحه ورغبته في التمدد والتوسع في العديد من المناطق العربية كسوريا بعدما جعل من مصر قوّة جديدة أصبحت في مواجهة السلطان محمود الثاني (الدولة العثمانية) الأمر الذي أربك الدول الأوربية وأخلط حساباتها في المنطقة فوجدت نفسها في مواجهة هذه القوّة المتنامية باستمرار، التي لا يبدو أنها ستتوقف عند حد ما[4].

كما وّظف المؤرخ المصري شفيق غربال[5] عبارة المسألة المصرية لوصف الأوضاع التي عرفتها مصر خلال الفترة الممتدة من نهاية القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر وعلاقاتها بالدول الأوربية بعد الحملة الفرنسية[6] التي فتحت الباب واسعا لظهور المسألة المصرية. كما عبر قنصل النمسا في رسالة بعث بها إلى وزير الخارجية مترنيخ، عندما بدأت المسألة المصرية في التجلي، عن تخوفه من بروز قوة وطموحات محمد علي باشا وطريقة إحكام قبضته[7] على مصر فقال: "إنني أرى عددا من الشواهد التي تشير إلى...فكرة إقامة دولة عربية،...فأرى من ناحية دولة عثمانية ضعيفة...ومن جهة أخرى جيشا عربيا، وأسطولا بحريا قويا، ويضاف إلى ذلك صحوة العالم العربي من نومه العميق"[8].

ثانيا– أهمية مصر للدول الأوربية:

تتميز مصر بموقع جغرافي استراتيجي هام. فهي تتوسط ثلاث قارات وتحتوي على ثروات كثيرة وخيرات متنوعة ومتعددة. ففيها تتقاطع طرق التجارة التي جعلتها أحد الخطوط الرئيسية التي تربط الشرق بالغرب. ويشملها النيل الذي أسال لعاب فرنسا وبريطانيا، وصعّد التنافس بينهما طمعا في السيطرة عليه والانتفاع بخيراته حيث "لم تتفتح الأعين الأوربية عليها إلاّ مع الحملة الفرنسية"[9].

ومما زاد من إصرار الدول الأوربية على توسيع أطماعها في أقاليم الدولة العثمانية هو تراجع قوتها (الدولة العثمانية) وكثرة مشاكلها الداخلية والخارجية، خاصة بعد ظهور ملامح خيوط المسألة الشرقية[10] بشكل جلي. بحيث أدركت أوروبا بأن نهاية الدولة العثمانية وسقوطها ليست سوى مسألة وقت لا غير. وهو ما أكده تاليران حينما قال: بأن الإمبراطورية العثمانية قد لا تستمر لأكثر من ربع قرن، كما حذر من أن يتم تقسيم ممتلكاتها حتى قبل نهايتها وينصح بلاده فرنسا أن تتهيأ للأمر: "فعلى الجمهورية أن تهيئ الوسائل التي تمكنها من الاستيلاء على ما تجده مناسبا من حطام تركيا. وإنني بدون تردد أضع في طليعة الأراضي التي تقضي المصلحة بأن تكون حصتنا، القطر المصري وجزيرة كريت ولمنوس. فإن مصر التي وضعتها الطبيعة على مسافة قصيرة منا، نجد لنا فيها مزايا وفوائد لا حد لها، ومجالا تجاريا واسعا، الهند وجميع البلدان الأخرى"[11].

لم تتأخر فرنسا كثيرا لتجهز حملة كبيرة على مصر. وسار نابليون بجيشه إليها بسرية تامة في 19 ماي 1798م، وعند وصوله إلى الإسكندرية خطب في جيشه وبيّن لجنوده أهمية الحملة التي يقومون بها والهدف منها[12].

لقد أسفرت حملة نابليون بونابرت على نتائج هامة منها ما كان إيجابيا على مصر كتلك المجمعات العلمية والدواوين وغيرها من المنشآت التي أسسها نابليون بونابرت خلال فترة الحملة. ومنها ما كان سلبيا عليها خاصة على الصعيد العسكري كالدمار[13] الذي خلفته والأرواح التي أزهقت نتيجة المعارك والمواجهات العسكرية.

كما تأثرت النخبة المصرية بالحياة العلمية والفكرية التي أتى بها علماء ومفكري الحملة الفرنسية. كما ظهرت في مصر الدراسات العلمية التي أسس لها علماء الحملة بحيث" أنشأ بونابرت دواوين أو مجالس مؤلفة من كبار العلماء، والتجار، وممثلي الطوائف، ومشايخ الحرف، للنظر في الشؤون العامة"[14]. ومن جهة ثانية شكّلت هذه الحملة مرحلة

–تنفست فيها الدولة العثمانية الصعداء–بعدما تم القضاء على دولة المماليك فأمنت ثوراتهم وقلاقلهم وتمرداتهم.

ثالثا– أسباب المسألة المصرية

يمكننا حصر أهم أسباب التي أدت الى ظهور المسألة المصرية فيما يلي:

أ. ظهور محمد علي وتزايد طموحاته التوسعية التي تهدد مصالح فرنسا وبريطانيا الجيوستراتيجية في المشرق العربي والدولة العثمانية. خاصة بعد تفرده بحكم مصر التي اعتبرها من أهم الخطوات التي كان عليه الاستلاء عليها تمهيدا للزحف نحو باقي الأقاليم العثمانية. فحكم مصر سيعبد له الطريق نحو البلدان الأخرى، فلمصر مكانة كبيرة بالنسبة للبلدان المشرق العربي[15]، كما أراد محمد علي أن يؤمن حدوده الطبيعية في مصر من خلال توسعه في الشام شرقا وإلى الجنوب غربا. مما ألّب الدول الأوربية ضده، بما فيها حليفته فرنسا، والسعي من أجل وضع حد لتوسعاته تمهيدا للقضاء عليه.

ب. رفض السلطان العثماني محمود الثاني طلب محمد علي بحكم سوريا نظير خدماته التي قدمها للسلطان في الحرب اليونانية وضد الوهابيين، بالمقابل عرض عليه منطقة كريت، فكان رد فعل محمد علي أن أمر ابنه إبراهيم باشا بالزحف نحو فلسطين والشام. فرغم أن السلطان محمود الثاني قام باستدعاء محمد علي وعامله بكل ترحاب وتقدير ومنحه جزيرة كريت جزاء له على مشاركته في حرب المورة، كما عينه في 16 جانفي 1824م، قائدا عاما للقوات العثمانية في المورة بمقتضى فرمان همايوني، إلاَّ أن محمد علي كلف ابنه إبراهيم باشا بقيادة الجيش وأرسل معه 30 ألف جندي واسطول مؤلف من 65 سفينة حربية كبيرة و250 سفينة نقل[16] لخوض المعركة.

ت. اندفاع محمد علي في تنفيذ مشروعه التوسعي لتكوين قوة كبرى له في المشرق بديلة عن الدولة العثمانية، ومن ذلك زحفه نحو دمشق وفلسطين ولبنان ما بين شهر نوفمبر

1831م وشهر جوان 1832م[17]، لم تتوقف طموحات محمد علي باشا عند هذا الحد بل قام بإخضاع "النوبة والسودان الشرقي" إليه.

ث. طفت مظاهر الضعف والتراجع على سياسة الدولة العثمانية التي حاصرتها التمردات والحروب من مختلف الجوانب خاصة في مصر التي احتدم الصراع فيها بين المماليك فواجهتهم بتولية محمد علي الذي قضى على المماليك، ليتمرد بعد ذلك بدوره على السلطان العثماني وينفرد بحكم مصر. ويعلن انفصاله عن الدولة العثمانية بعدما بلغ درجة كبيرة من السلطة الفعلية في مصر، ولكن إعلان انفصاله عن السلطان سيسبب له مشاكل كثيرة. فالسلطان العثماني مهما بلغ ضعفه، فهو خليفة المسلمين، وأي انفصال عنه، أو ثورة علنية عليه، لا يمكن أن يتقبلها المسلمون بسهولة[18].

ج. عجز الدولة العثمانية من وضع حد لتوسعات محمد علي التي لم تتوقف في مصر وسوريا بل امتدت إلى أقاليم أخرى كأضنة وقونية سنة 1832م. بل اقتنعت أن طموحه في ذلك متواصل خاصة في ثلاثينيات القرن التاسع عشر فقد "توجّست الدولة العثمانية خيفة من قوّة ذلك الوالي، وخشيت من انفصال مصر عن حوزتها"[19].

رابعا– مظاهر المسألة المصرية

1– الصراع الفرنسي الإنجليزي:

احتدم الصراع بين فرنسا وبريطانيا من أجل مصالحهما في المنطقة ومن أجل تحقيق مكاسب سياسية ومادية وللعب الدور الفعال في هذه المسألة حتى تكونا طرفا أساسيا في أي اتفاقات أو معاهدات قد تبرم بين الدول.

كما أثمر هذا الصراع في فترة الحملة الفرنسية على مصر وسوريا على التفوق الانجليزي[20]، الذي تقلد مرتبة قريبة من الامبراطورية العثمانية. إذ كان لوقوفها إلى جانبها، ورفضها للحملة الفرنسية انعكاسات إيجابية على العلاقات بينهما " خاصة أنها كانت على رأس الدول الأوربية التي اضطرت محمد علي باشا إلى الانسحاب من بلاد

الشام، والاكتفاء بحكم مصر، وذلك في مؤتمر لندن الأول سنة 1840 والثاني سنة 1841م. الذي اشتركت فيه فرنسا..."[21].

وقد استدعت المصلحة أن تتحد الدول الأوربية لمواجهة محمد علي للقضاء عليه ووضع حد لخطر قوته المتصاعدة وطموحه الجامح. و"إبقاء الشرعية" بيدها في المنطقة بعد عجز الدولة العثمانية عن ذلك. فانبعاث الدولة العثمانية من جديد أو ظهور أي قوة وافدة في المنطقة، تحل محل الدولة العثمانية، قد يمثل الخطر الحقيقي على مصالح فرنسا وبريطانيا، كما سيعرقل جهودهما في اقتسام أملاك الدولة العثمانية المتهالكة. ولهذا سعت كل منهما إلى إيجاد طريقة لتحقيق خططها. فبينما ساندت فرنسا محمد علي حتى تجد لها منفذا عبر ذلك معتقدة أنها أحق من أية دولة أوربية أخرى في الاستلاء على مصر بعد أن دخلها نابوليون خلال الحملة الفرنسية سنة 1798م، بالإضافة إلى مساندة ودعمها لتنظيمات محمد علي الذي كلما زادت توسعاته في الأقاليم الأخرى زاد نفوذ فرنسا خاصة بعد المساعدات التي قدمتها له، وقفت بريطانيا إلى جانب السلطان العثماني فلم يكن واضحا لديها أن قوة محمد علي وعصيانه للسلطان العثماني سيدوم طويلا. كما كانت تربطها بالدولة العثمانية اتفاقيات عسكرية وتجارية حرصت على الحفاظ عليها وعلى ما اكتسبته منها وأدركت أنها ستضيع ذلك إذا نجح محمد علي في أن يحل محل الباب العالي بمساندة غريمتها وحليفته فرنسا.

استغلت فرنسا العداوة التي كانت بين محمد علي باشا وبين السلطان العثماني من جهة وعداء بريطانيا له من جهة ثانية وانحازت إلى جانب محمد علي، وظلّت توطّد علاقاتها معه لتزيد من تقوية وجودها في مصر عن طريق امداده بالمساعدات المتنوعة علمية وفنية وعسكرية لتنفيذ إصلاحاته ومشروعه ومن ذلك أنها أرسلت عدد من علماء الحملة الفرنسية ليدعمونه ويساندونه في مشاريعه المختلفة كما قامت باستقبال عدد كبير من البعثات العلمية الى فرنسا.

وشكلت فرنسا بمواقفها اتجاه الدولة العثمانية عنصرا قويا في ايقاظ النزاعات والفتن، لا لشيء إلاَّ لتتصدر حل هذه الصراعات، مثلما كان عند بداية المسألة المصرية، فقد ذهب بعض الفرنسيين إلى محمد علي يقترحون عليه اغتنام حرب المورة للاعتراف باستقلال اليونان وإعلان استقلاله في مصر فيضع الدول الأوربية أمام الأمر الواقع فتضطر إلى معاملة مصر على قدم المساواة مع اليونان. "إلاَّ أنّ محمد علي لم يكن ليثق في هذه الآراء التي تحمل كل معاني العداء والتمرد على الدولة العثمانية، كما لم يرد ترك القوات العثمانية وحدها في رحى المعركة، فكان رده على الجنرال بواييه: "إذا كانت غاية السلطان البعيدة من استدعائي إلى المورة هي إضعاف جيشي والقضاء على أسطولي، وهذا رأي صحيح، فما هي أهداف الدول الأوربية من طلب استدعاء جيشي الآن من المورة. أليست هي كأهداف السلطان؟ أليست الغاية الكامنة وراء هذا الطلب خلق جو من التوتر بيني وبين محمود الثاني الذي سيعتبر انسحابي من اليونان حكما عليه بالإعدام؟ وما هو الضمان الذي تقدمه لي الدول الأوربية لقاء هذه التضحية؟"[22].

2– شق قناة السويس والصراع الفرنسي الإنجليزي:

ظهرت أهمية قناة السويس منذ العصور القديمة باعتبارها منطقة اتصال البحرين الأبيض المتوسط والبحر الأحمر[23]، ومثلت أحد المظاهر المعقدة في الصراع الفرنسي الانجليزي حول مصر، نظرا للأهمية الاستراتيجية للقناة وانعكاساتها الكثيرة سياسيا واقتصاديا. فهي أحد أهم الممرات المائية في العالم، وموردا أساسيا للتجارة الإقليمية والعالمية وتجمع بين منطقة بورسعيد على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر، وتُعد موردا كبيرا ومتنوعا للتجارة الدولية التي جعلت الدول الأوربية ترمي بكل ثقلها السياسي والدبلوماسي للفوز بامتياز حفر قناة السويس والحصول على المكتسبات المختلفة الناتجة عن ذلك.

وما تجدر الإشارة إليه أن المهندسون الذين كانوا ضمن الحملة الفرنسية على مصر سعوا لشق القناة، لكنهم فشلوا في ذلك نظرا للاعتقاد السائد آنذاك بوجود تفاوت بين مستوى سطحي البحرين الأحمر والمتوسط، تكون نتائجه وخيمة على مصر حيث قد يؤدي إلى إغراقها.

بينما عمل المهندسون الإنجليز كثيرا لدراسة المنطقة من أجل شق طريق بحري يربط البحرين، فخلصت دراستهم إلى عدم اختلاف مستوى البحرين، وعليه يمكن شق قناة مستقيمة بينهما. فكانت نتائج مغايرة لما وصل إليه علماء الحملة الفرنسية القاضية باختلاف مستوى سطحي البحرين[24].

3– عصيان محمد علي

لم تكن في حسبان الدولة العثمانية بأن محمد علي سيثور عليها، ويعلن استقال مصر عن الدولة العثمانية، وينفرد بحكم هذا الإقليم الكبير من أقاليم الدولة العثمانية، فهو الجندي الذي اختاره السلطان العثماني لقيادة الجيش الذي ارسله إلى مصر، ووضع حد لصراع المماليك على حكم مصر، فقد كما لم يكترث السلطان العثماني بعد ذلك كثيرا لتمرد محمد علي باشا عليه بل اعتبرته نصرا وتثبيتا لحكمها كما "بدا تمرد محمد علي بالنسبة للإمبراطورية العثمانية تقليدا، وبدا وكأنه لا يمثل تهديدا لوحدة الدولة"[25].

إلاّ أنه مع مرور الوقت اتضحت لها الصورة وتوضحت حقيقة المشروع الذي خطط له محمد علي حاكم مصر الجديد الذي سعى فيما بعد إلى الحلول محل الدولة العثمانية، وبسط حكمه على باقي الأقاليم المجاورة لمصر والتابعة للسلطان العثماني.

ولهذا سارع السلطان محمود الثاني[26] إلى التخلص من محمد علي بعد أن تبينت لها النوايا المبيتة العلنية منها والسرية. عن طريق استعمال ما توفر لها من وسائل دبلوماسية وعسكرية لكبح تطاول محمد علي على الدولة العثمانية، ومن ذلك عقد صلح مع بريطانيا وروسيا رغم عداءها لهما قائلا: يستنجد الغريق بالثعبان[27].

4 – حملة محمد علي على سوريا:

أ– أسبابها وظروفها

لعل أهم أسباب قيام محمد علي باشا بحملته العسكرية على سوريا هو عدم استجابة السلطان العثماني محمود الثاني لطلبه توليته على سوريا نظير خدماته ومساعدته في اخماد ثورة اليونان والحركة الوهابية، اللتان عجزت الدولة العثمانية على ردعها، واكتفاءه بالتنازل له عن كريت، هذا الأمر الذي أغضب محمد علي فجهز جيشه وجعل ابنه إبراهيم باشا على رأس قيادته وزحف به إلى فلسطين ولبنان ودمشق ودخل بذلك سوريا بين نوفمبر 1831م وجوان 1832م.

وقد نجح إبراهيم باشا في دخول مدينة عكا في ماي 1832م، ووصل قونية وكوتاهية ثم سار نحو دمشق فوجد نفسه في مواجهة جيش علي باشا (علوش باشا)، المتكون أساسا من " 10000 رجل. كان معظمهم من الأكراد، وشبان المدينة، وبعض الدروز. بينما كان جيشه بتعداد 16000 رجل، وقد تمكن من دحر جيش علي باشا بعد مقاومة محدودة، ودخل دمشق في 14 جوان 1832م[28].

كما اجتمعت عوامل أخرى دفعت محمد علي إلى التوسع في الشام منها:

–رغبة محمد علي في توسيع مملكته وبسط نفوذه في أقاليم الدولة العثمانية المتهاوية في المشرق ولما لا الحلول مكانها: فنجاح تجربته في مصر كانت دافعا كبيرا لذلك.

–يذكر في بعض الآراء أنه من بين الدوافع التي أدت بمحمد علي إلى القيام بالحملة على سوريا، هو تحرك بعض أعيان أسرة آل العظم التي سبق وأن استقرت بمصر، ما جعل محمد علي يقوم بالحملة خوفا على مصير أهاليهم وعوائلهم فيها[29]. كما اغتنم محمد علي الخلاف[30] الذي كان بينه وبين عبد الله باشا والي عكا، وأرسل إليه قوة عسكرية في

ديسمبر 1831م. وسرعان ما أصدر السلطان محمود الثاني فرمانا، يعتبر فيه محمد علي عاصيا للدولة العثمانية متمردا عليها.

ب– المواقف المتناقضة:

لم تستقر الدول الأوربية على موقف واحد في التعامل مع المسألة المصرية، فكثيرا ما كانت مواقفها تتناقض كلما وجدت أنه يحقق مصالحها. كما يعكس حدة التنافس والصراع بينها حول اقتناص المكتسبات والامتيازات في المنطقة. فكل دولة حريصة شديد الحرص على ترجيح كفة الانتصار إلى حليفتها لأن ذلك ضمان لاستمرارها واستمرار وجودها هناك.

وما يجب الإشارة إليه أن بريطانيا لعبت دورا كبيرا في انسحاب محمد علي من بلاد الشام في مؤتمر لندن سنة 1840م مقابل احتفاظه بمصر، كما مارست ضغوطا كبيرة على فرنسا لإشراكها في مؤتمر لندن الثاني سنة 1841م، لوضع حد للمسألة المصرية ومحمد علي، وقد كان هذا صفعة كبيرة لفرنسا ومثلت انهزام سياسي لها أمام بريطانيا.

لقد كانت بريطانيا الطرف الرابح في هذه المرحلة من الصراع، بعدما خرجت منه منتصرة سياسيا، ومستفيدة اقتصاديا. نظرا للاتفاقيات التي افتكتها من الباب العالي، نظير دعمها له ووقوفها إلى صف الدولة العثمانية. وقد أكدت قرارات مؤتمر لندن على تفوقها السياسي والدبلوماسي.

ج– مراحل المسألة المصرية:

مرت المسألة المصرية بأحداث كثيرة منذ أن خطط محمد علي باشا لبسط سلطته وحكم مصر حكما مستقلا عن الدولة العثمانية. ويمكننا تقسيم مراحل المسألة إلى ثلاثة مراحل أساسية هي:

–**المرحلة الأولى (1798–1807م)**: وهي المرحلة المنحصرة بين الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابوليون بونابرت وتنتهي بفشل الحملة الإنجليزية على مصر أيضا. وقد

تميزت هذه المرحلة بتأثير أوربا المباشر على الأوضاع السياسية في مصر[31]، وبدأ فيها التفوق الفرنسي واضحا على بريطانيا بعدما نجحت فرنسا في قيامها بحملتها على مصر دون أن تكتشف بريطانيا الخطة الفرنسية

–المرحلة الثانية (1808–1824م): تميزت هذه المرحلة بسيطرة محمد علي باشا على مصر وإحكام قبضته عليها، واستقراره في علاقاته مع الدول الأوربية خصوصا بعد انعقاد مؤتمر فينا[32] الذي كان الهدف منه هو تسوية المسائل المترتبة عن الحروب النابليونية. كما رسم خريطة سياسية جديدة لأوربا، وقام بتشكيل الحدود الفرنسية في المناطق التي توسعت فيها.

لقد ازدادت قوة ونفوذ محمد علي باشا بعدما حكم مصر حكما شبه مستقل عن الباب العالي وأدخل عليها تنظيمات وإصلاحات كثيرة، فأنشأ جيش قويا لمجابهة الأخطار المحدقة به، وحرص على تدريبه تدريبا عسكريا قويا وحديثا، فأوكل ذلك إلى الضباط الأوربيين الذين استقروا في مصر بعد الحملة الفرنسية سنة 1801م، ووفر لهم أحدث الأسلحة، وجعل على قيادته ابنه إبراهيم باشا خاض به حرب المورة وحقق انتصاراته المتعددة في كريت واليونان وسوريا. كما نظم الإدارات، واهتم بالزراعة والتجارة وجهزها بأحدث التقنيات، وأنشأ المدارس. وشجع البعثات العلمية إلى أوربا لتحصيل مختلف العلوم الأدبية والتقنية والعسكرية وغيرها من الإصلاحات الأخرى.."كما أوجد واقعا ثقافيا متفتحا على الغرب ومعتمدا على مقومات مصر العربية الإسلامية"[33].

–المرحلة الثالثة (1825–1840م): كان لانعقاد مؤتمر لندن[34] سنة 1840م، أثره في هذه المرحلة على مصر حيث طوقت بنوده القاسية مصر التي سبق وأن تورطت في حرب المورة، مما الأمر الذي أشعل تنافس الدول الأوربية عليها بما فيها فرنسا التي كانت تدعمه قبل هذا.

فلم يكن مشروع محمد علي لبناء دولته في مصر وجعلها قوة كبيرة في المشرق تضاهي القوى الأخرى لترضي الدول الأوربية ولا الدولة العثمانية، كما لم يكن طموحه وطمعه في التمدد في المشرق وتوسيع مملكته في أقاليم الدولة العثمانية يقبله هؤلاء. فبالنسبة لهم هو خطر قائم وقادم سيهدد مصالحهم ويبطل خططهم في المنطقة لا محالة إذا لم يوقفوه ويضعوا له حد "فكانت النتيجة تكاتف القوى الأوربية ضد مصر لإعادة الاستقرار، وكان الثمن اجهاض الحلم المصري"[35].

وحارب محمد علي على كل الجبهات الداخلية التي كانت تشكل له عائقا في تنفيذ حكمه في مصر. فقضى على المماليك في مذبحة جماعية قتل فيها نحو أربعمائة وخمسون فرد من المماليك، في 11 مارس 1811م عرفت بمذبحة القلعة، كما لبى طلب السلطان العثماني لمساعدته في القضاء على تمرد الوهابيين في شبه الجزيرة العربية (1811-1818) وللقضاء على ثورة اليونانيين بقيادة إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا " لقد تحولت مصر من تابع ضعيف للدولة العثمانية إلى عضو مؤثر في الأمن الأوربي في زمن قصير للغاية"[36].

د- نهاية المسألة المصرية

اعتبرت معاهدة كوتاهية[37]، التي اتفقت فيها الدولة العثمانية والدول الأوربية على وضع حد لطموحات محمد علي باشا ومشروعه التوسعي في المشرق. فقد أنهت بموجبها المسألة المصرية من خلال مجموعة من القرارات والتدابير التي وافق عليها –على مضض- السلطان العثماني كسبا للوقت حتى يتمكن من تجهيز جيشه والاستعداد إلى مواجهة أخرى لاسترجاع أقاليمه التي استولى عليها محمد علي باشا.

ولعل أهم هذه القرارات تلك التي نصّت على اخلاء محمد علي الأناضول، وتراجع جيوشه إلى ما وراء جبال طوروس، على أن تعطى له ولاية مصر طول الحياة مع تعيينه

واليا على إيالات الشام الأربع (عكا، طرابلس، وحلب، ودمشق) وكذا على جزيرة كريت، ويعين ابنه ابراهيم باشا واليا على أضنه.

ومن بنودها أيضا:

1-يقوم السلطان باعتباره السلطة العليا لمصر بتكليف السفن الحربية الانجليزية والسماح لها باحتجاز السفن الحربية والتجارية المصرية.

2-حيث أن محمد علي استطاع أن ينقل قواته، وإمداداته العسكرية إلى سوريا على سفن بعض الدول المحايدة، فإنه بإمكان الأسطول العثماني استنادا إلى الحقوق العليا للسلطان احتجاز هذه السفن.

3-يقوم الأسطول العثماني بالاشتراك مع اسطولي إنجلترا وفرنسا بعملياتهم قبالة السواحل المصرية والسورية.

4-تصبح هذه الشروط مؤكدة بموجب اتفاقية تتراوح مدتها من ست إلى ثماني سنوات.

وما تجدر الإشارة إليه، هو أن الشروط التي تمت الموافقة عليها " لإخضاع محمد علي للسلطان العثماني، كانت خلاصة العديد من اللقاءات والاجتماعات التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوربية في اسطنبول ولندن ما بين سنوات 1839 و1841م[38].

وقد عكست نهاية الصراع العثماني المصري بوضوح حقيقة الصراع الأوربي بشكل عام، وطبيعة الصراع الفرنسي الإنجليزي على وجه الخصوص، إذ أنه عبر مختلف مراحل المسألة المصرية كان التباين والتنافس واضحا بينهما، لينتهي الأمر بعد انهزام الدولة العثمانية أمام قوات محمد علي في نصيبين[39]، بانعقاد مؤتمر لندن 1840م بين الدول الأوربية، الذي أنهى مشاريع وأحلام محمد علي في المشرق. لينهي معها المشروع الفرنسي القائم على تلك الأحلام[40].

وما تجدر الإشارة إليه، هو أن الشروط التي تمت الموافقة عليها " لإخضاع محمد علي للسلطان العثماني، كانت خلاصة العديد من اللقاءات والاجتماعات التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوربية في اسطنبول ولندن ما بين سنوات 1839 و1841م[41].

خاتمة:

تعتبر المسألة المصرية إحدى محطات التنافس الأوربي في المشرق العربي، الذي أذكاه التكالب الأوربي على اقتسام ممتلكات الدولة العثمانية الآيلة إلى السقوط، بعد أن دبّ فيها الضعف والهوان فأصبحت لقمة سائغة يتجاذبها هؤلاء المتربصون الذين تمكنوا من تحقيق مشروعهم التوسعي. فيما بعد ليس بالسيطرة على مصر فقط، وإنما على مختلف أراضي الدولة العثمانية الأخرى التي سقطت لاحقا تباعا في المشرق العربي كمصر وبلاد الشام وفي المغرب الإسلامي كالجزائر وتونس وطرابلس الغرب وغيرها من الأراضي العثمانية الأخرى.

الهوامش:

1 – إميل خوري وإسماعيل عادل، السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة 1789 الى سنة ،1958، ج3، بيروت 1960م، ج1، ص 80.

2 - Pacha Ahmed Chafik, L'Égypte Moderne Et Les Influences Etrangères ; Imprimerie Misr Le Caire 1931 Pacha, P14 .

3– إسماعيل عادل وخوري إميل، مرجع سابق، ج1، ص 81.

4 – رد محمود الثاني معبرا عن كرهه الشديد لمحمد علي بعد احتجاج بريطانيا وفرنسا على معاهدة هنكار اسكله سي بأن"الدولة العثمانية وعاصمتها لا قيمة لهما في نظره وأنه مستعد للنزول عن عاصمته لمن يجيئه برأس محمد علي؟؟ نفسه، ص 118.

5– من أوائل الذين استخدموا كلمة المسألة المصرية. وهو مؤرخ مصري ولد في 4 جانفي سنة 1894م بالإسكندرية، توفي في 19 أكتوبر1961م.

6– عبد الستار محمد البدري ، المواجهة المصرية الأوربية في عهد محمد علي، دار الشروق، القاهرة، ط2001،1م، ص45، ومحمد صبري، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم، ط1، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 1926م، ص30.

7 – " غيّر محمد علي التقسيمات الإدارية القديمة الكثيرة وغير المنتظمة كلّية، وأخضع البلاد إلى تصنيفات إدارية...فكشف عن رؤى عميقة وعبقرية عالية في نظامه الإداري، كما أن النجاحات التي أحرزها في هذا الشأن كانت رائعة وقوية. لكن في كل المؤسسات لم يعتبر إلاّ نفسه ومصالحه الخاصة، كما اعتبرت الشعوب بالنسبة له أدوات ذليلة تهدف فقط لزيادة ثروته وقوته، فكانت تداس من قبل استبداد غير متحكم فيه ". ينظر:

LE Bon JUCHEREAU DE St DENYS, Histoire. de l'Empire Ottoman depuis 1792 Jusqu'a 1844, comptoir des imprimeurs unis; Paris, p274-276

8 – البدري، مرجع سابق، ص41.

9 – البدري، مرجع سابق، ص 48، وإلياس طنوس الحويك، تاريخ نابليون الأول، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1981م، ص 111.

10– **المسألة الشرقية**: يتطابق معناها مع جملة من الوقائع بين عامي 1774م على إثر انعقاد معاهدة كوجوك كاينارجي، وعام 1920م، سنة انعقاد مؤتمر لوزان. وهي مجموعة الوقائع التي أدت إلى التمزق التدريجي للدولة العثمانية. وتنافس الدول الأوربية العظمى على بسط سيطرتها على أوربا البلقانية، والبلدان

الواقعة على الحوض الشرقي للبحر المتوسط. وعلى ضفافه الجنوبية. فكل دولة أوربية إلاّ وكانت لها أطماع في منطقة من مناطق الدولة العثمانية، فاتخذت العديد من العوامل التي تمكنها من بسط نفوذها عليها، كعامل الأقليات مثلا. أنظر: روبار منتران، تاريخ الدولة العثمانية، تر: بشير السباعي، ج2، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1992م.، ص 5.

11- إميل خوري وعادل إسماعيل، مرجع سابق، ص80.

12- جاء في خطابه:" أيها الجنود، أنتم مباشرون فتحا لا يحدّ تأثيره بالمدنية والتجارة في المعمورة، وستضربون بريطانيا ضربة مؤلمة ريثما يتسنّى لكم أن تضربوها الضربة القاضية. سنسير بالبلاد سيرا يصيبنا من جرّائه العناء والإعياء، وسنشتبك في حروب هائلة، وسنجني ثمار النصر من جميع مشروعاتنا وفي جميع هذه الأعمال سيفتر لنا ثغر الحظ. إنّ المماليك الذين يساعدون التجارة البريطانية، ويجرّعون تجارتنا كؤوس الإهانة مترعة من الاصبار، ويحملون سكان وادي النيل أثقال المظالم، سيصبحون أثرا بعد عين بعد وصولنا بأيام" عبد الستار محمد البدري: المواجهة المصرية الأوربية في عهد محمد علي، دار الشروق، القاهرة ط1، 2001م، ص 48، وإلياس طنوس الحويك، مرجع سابق، ص 111.

13 – يقول أبو راس الناصري المؤرخ الجزائري الذي عاصر الحملة الفرنسية على مصر واصفا المجازر والأعمال التخريبية التي قام بها الجيش الفرنسي:" ... ودخلوا مصر مع طاغيتهم بونابرت أول ربيع النبوي من السنة المذكورة (1213 هـ)، فقتلوا من وجدوا بها من الغز، واستباحوا ديارهم، وأمنوا من المدينة كل بنا يتوقع منه سوء، وقتلوا كل من توجهت عليه الضنة في شأن الغز... وفر الباشا مراد وأهل دولته إلى أقاصي الصعيد، وتركوا حريمهم في أيدي الكفرة، وقتلوا كل من أثار فتنة، أو توهموا فيه استنكافا... ودخلوا جامعها الأعظم، فأهين أشد الإهانة، وشتتوا خزائن الكتب التي به، وداسوها بالأرجل، وحوافر الخيل، إنا لله وإنا إليه راجعون... ". ينظر: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، دار البصائر، 2007م، ص ص 299 – 308.

ويقول الجبرتي الذي عاصر الحملة أيضا: "ضربوا (الفرنسيون) بالمدافع والبمبات، على البيوت، والحارات، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر، وجروا عليه المدافع... فكل من حضر للصلاة يراهم فيفرّ راجعا ويسارع... وخرجت سكان تلك الجهة يهرعون للنجاة بأنفسهم طالبون، وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كان أشرف البقاع". ينظظر: عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ج3، دار الكتب المصرية، 1998م، ص.26، ص. 795.

14- الجبرتي، مرجع سابق، ص 28.

15 - William Miller. the ottoman Empire and its successors 1801-1927. the university press Cambridge London 1913 e4.p 301.

16- إميل خوري وعادل إسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة 1789 إلى سنة 1958م، الجزء 2، ص 23.

17- لم يكن تمرد حكام الأقاليم ضد السلطة المركزية في الإمبراطورية العثمانية يحمل في غالب الأحوال طابع الوقوف في وجه السلطان، ولم يكن يستهدف الانفصال عن الإمبراطورية. بل على العكس من ذلك، كان الإقطاعيون المتمردون يرون أنفسهم أكثر خدم السلطان إخلاصا. عن مثل هذه المواقف كتب بازيلي قائلا: "كان هذا الشكل الخاص من التمرد معروفا منذ القدم وممكنا في الشرق فقط. لم يكن الباشاوات يعلنون تمردهم على السلطان، الذي ظلت حقوقه الروحية والسياسية مصونة بصفته خليفة رسول الله. وإنما كان التمرد موجها ضد الحكومة التي عينها هذا السلطان، وحيث التناقضات كثيرا ما تتجاور وتتشابه، فإن الاستبداد الشرقي يقف هنا جنبا إلى جنب مع راديكالية الغرب. أنظر: نينل الكسندروفنا دولينا، الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، ترج: أنور محمد ابراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 1999م، ص28.

18- عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون 1516– 1916، مطابع ألف باء، دمشق، 1982م، ص 352 .

19 – اكمال الدين احسان أوغلي وصالح سعداوي صالح، الثقافة التركية في مصر، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول، ط1، 2003م، ص 34.

2- أصبح لإنجلترا في أعقاب معارضتها لحملة نابليون بونابرت، دور هام في تقرير السياسة في مصر والمشرق العربي، خاصة وأن الدولة العثمانية اعتمدت عليها في دعم وجودها ضد محمد علي والنفوذ الروسي. للتوسع أكثر، أنظر: عبد الكريم رافق، مرجع سابق، ص .419

3- نفسه، ص ص 419 – 420.

22 – إميل خوري واسماعيل عادل، مرجع سابق، ص ص 23 – 24.

[23]– صفوت مصطفى، مرجع سابق، ص ص 16– 18.

[24] – محمود صالح منسي، مشروع قناة السويس بين أتباع سان سيمون وفردينان دي لسبس، الاتحاد العربي للطباعة، 1971م، ص 46.

25- نينل الكسندروفنا، مرجع سابق، ص 28 .

[26] – هو الابن الأصغر للسلطان عبد الحميد الأوّل، والدته السلطانة "نقش ديل". تولى العرش في جويلية 1808م والدولة العثمانية تتخبط في اضطرابات وأزمات، سعى إلى انتشال الدولة العثمانية من الانزلاقات والمخاطر، التي أحاطت بها من كل صوب، بانتهاجه الإصلاحات. توفي في جويلية 1839م. للإطلاع أكثر أنظر: ابراهيم حليم بك، التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، مؤسسة المختار، مصر، القاهرة، ط1. وعزتلو يوسف بك آصاف: مرجع سابق، ص 114 وما بعدها. و أحمد آق كندز وسعيد أوزتوك، الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العلمية اسطنبول، 2008م، ص 383 وما بعدها.

27- أوزوتونا يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، تر: عدنان محمود سلمان، مؤسسة فيصل للتمويل، اسطنبول، 1988م، ص 16.

28- ليندا شيلشر، مرجع سابق، ص 59.

29- "كان لآل العظم المنحدرين من نصوح باشا، والذين استقروا بمصر، صلات وثيقة بالأسرة الحاكمة في مصر. وإذ شعروا بالوضع الحرج الذي يواجه أصدقاءهم وأقاربهم في دمشق واحتمال نجاح مناهضيهم من عصبة الميدان في إحكام سيطرتهم على المدينة، فلعلهم التمسوا من محمد علي باشا توجيه حملة إلى سورية لإعادة "النظام" إليها". أنظر ليندا شيلشر، تر: عمرو الملاح، ودينا الملاح، مراجعة عطاف مارديني، تاريخ دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دار الجمهورية، دمشق ،ط1، 1998م، ص 58.

30- طلب محمد علي من عبد الله باشا طرد الفلاحين الذين فروا من مصر وتقديمهم لمحمد علي لمقاضاتهم، ولكن عبد الله باشا رفض ذلك باعتبار أن هؤلاء رعايا عثمانيين يحق لهم التنقل أينما شاءوا في أقاليم الدولة العثمانية. أنظر: فريد بك، مرجع سابق، ص ص 448 – 449.

31- فريد بك، مرجع سابق، ص 46.

32- مؤتمر فينا: انعقد في الفترة الممتدة بين سبتمبر 1814 وجوان 1815م برئاسة ممثل النمسا مترنيخ وسفراء العديد من الدول الأوربية منها بريطانيا، روسيا ،بروسيا، النمسا...،

33- ناصر الدين سعيدوني، **المسألة المصرية**، مقال في الانترنيت.

[34] – معاهدة لندن: انعقدت في 15 جويلية 1840م، بين كل من بريطانيا، روسيا، بروسيا، والنمسا، من جهة. والدولة العثمانية من جهة أخرى، لمواجهة محمد علي. وأهم ما نصت عليه: اجبار محمد علي على سحب قواته من بلاد الشام حتى عكا، والاكتفاء بولاية مصر وراثية له ولأولاده من بعده.

35- البدري، مرجع سابق، ص 10.

36- جلال السيد، مرجع سابق ص، ص 11، 42.

37- معاهدة كوتاهية: انعقدت في 05 ماي 1833م بمدينة كوتاهية،. أنظر: فريد بك، مرجع سابق. ونينل الكسندروفنا، مرجع سابق، ص 98.

38- نينل الكسندروفنا، مرجع سابق، ص 98.

39- معركة نزيب أو معركة نصيبين: هي مواجهة عسكريه وقعت في 25 جوان 1839م، بين الجيش العثماني، وجيش محمد علي و انتهت بانتصار الجيش المصري، وانهزام الجيش العثماني.

40 أنظر إميل خوري واسماعيل عادل، مرجع سابق.

41- نينل الكسندروفنا، مرجع سابق، ص105.